

في نور محمد فاطمة الزهراء

وانتهت الرحلة، وأغلق على أمل أُمّية غلاف الكتاب[449]. * * * عاد العابد الثقفي ومن معه إلى مكة، فإذا محمد قد بُعث، وإذا قلاّة معه وكثرة عليه، وإذا الآراء في رسالته تتأرجح بقومه من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، بين متابعتة وبين منازعتة، إلاّ ذلك النفير القليل الذين اهتدوا وأسلموا وجوهمهم. عندئذ حدّث أبو سفيان صاحبه: هذا محمد قد بُعث! قال أُمّية: أما وإيّاه إنّه لحقّ فاتّبعه. قال أبو سفيان: وأنت، ما يمنعك أن تتّبعه؟ فأخرج ما بقلبه، وأجاب: الحياء من نساء ثقيف، إنّي كنت أُخبرهنّ أنّي هو، فكيف الآن أتّبع فتىً من بني عبد مناف[450]؟ بل الحسد ما قد منعه وليس الحياء، ولم يسلم، لم ينفعه علمه. كان كمن نزل فيه قول الله: (وَإِذْ نُنَزِّلُ عَلَيْنَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ ذِكْرًا لِلَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ تَبَتَّوْا إِنَّ إِلَهُنَا لَإِذَا نُنَزِّلُ الْقُرْآنَ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [451]. ورحل... انصرف عن متنزّل الرسالة السماوية، بعيداً إلى اليمن في أقصى جنوب الجزيرة، كأنّما فراراً بنفسه من الإيمان. لكن ندمه على هذا الذي فرط منه راح يطارده بقية العمر، أينما ولّى ورحل، أو حلّ ونزل، مطاردة ظلٍّ لظليل، لم يفارقه في يقظة ولا منام. فلمّا أن حضرته الوفاة، تحسّر وتلوّم، كما لم يتحسّر قطّ وأسباب الحياة مبسوطة حواليه، انتبه مرّةً وهو يعاني سكرات الموت، من غشية أخذته، فزجر نفسه - ولات حين زجر - أن استكبرت، فإذا هو بغير زاد ولا حميل على طريق هذا الرحيل.